خليل صويلح وعزلته الجميلة.. هل يشكل الرحيل من البلاد حتمية لا بد منها في الحروب؟!

«رواية عزلة الحلزون» ادّعاء المعرفة والألقاب العلمية والأكاديمية الرنانة بغير حق!

| ثناء خضر السالم

اللغة عالمٌ جميل يفيض إحساساً وفكراً وصوراً، يمسكُ بطرف قلبك ويقول: انظر إلى دهشة إبداعي. هي لغة الروائي السوري خليل صويلح، تثير شهيتك إلى المتابعة، يزيدها سحراً التوظيف الجيدّ للتّراكم المعرفي الذي يفيض به النص.

«عزلة الحلزون» هي الرواية الأخيرة التي صدرت للكاتب منذ مدة وجيزة، وهي كسابقتها «اختبار الندم» تقف عند تفاصيل الحرب في بلدنا.

ينتصر الكاتب في مقدمة الرواية للعقل من خلال إيراده مقولتين إحداهما للجاحظ «فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل، والعقل هو الحجة» والثانية للقديس يوحنا فم الذهب: «أريد أن أطرد لا الهراطقة بل الهرطقة».

المشكلة التي يقف عندها الراوي كمدقّق لغوي هي كثرة الأخطاء الفادحة بحق اللغة العربية على الحائط الأزرق (الفيس بوك). وينتقل بعدها إلى عرض مشكلته مع زوجته التي لم تفلح في إقناعه بحتمية الرحيل عن البلد في هذه الظروف الصعبة. الزوجة الراحلة ثريّا صبّاغ هي أنموذج للشخص المنافق الوصولي استغلّت الحرب وأمّنت لنفسها فرصة اللجوء إلى بلد آخر، «فقد لفّقت لنفسها سيرة متخمة بالاضطهاد والملاحقات الأمنية وأخطار العيش في البلاد، كانت قد أخذتها من صفحات مدوّنات لنسوة مجهولات كتبن تجاربهن في الانتهاك والخوف وحوادث الخطف».

أعتقد أن الرواية توثّق الحدث بشكل أفضل من كتب التاريخ نفسها، فكما كان الشعر الجاهلي يوازي وزارة إعلام، فالرواية في العصر الحديث هي هذه الوزارة عينها، فهي ترى الواقع بعين الحقيقة بعيداً عن مقولة (التاريخ يكتبه المنتصرون).

وقف الكاتب عند مفرزات الحرب بدءاً بعمليّات التعفيش التي سادت البلد، فقد امتلأت المحالّ بالبضائع المنهوبة وتمت المتاجرة بأغراض أناس أغلبهم من المتضرّرين الذين تركوا بيوتهم بعدما انعدم الأمان في أمكنة إقامتهم. ويرصد تمادي بعض الشخصيات في فسادها وتجبّرها وتسلّطها على البشر وطغيانها – ففي الحرب تعمّ الفوضى– وسقوط بعضها وفقدانه كلّ ما نهب. ويقف عند الفساد الذي طال المؤسسات العلمية فصار لقب (دكتور) متاحاً بوفرة، فضلاً عن السّرقات العلمية لرسائل دكتوراه ولا ننسى تزوير الدال الفخرية. وقد قام البعض بالاستعانة بغيرهم للكتابة في الصحافة وحصلوا على ألقاب رنّانة.

النص مكتوب بسرد متين وحبكة محكمة يقدّم لنا من خلاله معلومات تتدفّق بسلاسة كنهر غزير يفيض معرفة، طبعاً لن أتمكّن من الإحاطة بكل الكتب التي وردت في الكتاب:

فيتضمّن كتاب «حياة الحيوان الكبرى» لابن محمد الدميري صفات الحيوان ووصفات طبية في عدة أمراض. ويتحدث عن كتاب «الحيوان» للجاحظ الذي كما قال الجاحظ «جمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، وما الفرق بين الدمية والجثة والوثن والصنم».

ويعرض لنا كيف تمّ إحراق كتب ابن رشد في حياته على يد الخليفة يعقوب منصور الموحّدي، وكيف اتُّهم بالإلحاد لأنه دعا إلى إعمال العقل، ويقف عند المصير المحزن الذي انتهى إليه في أليسانة كبائع خيول وفخاريات.

ويقف عند المذبحة التي طالت كتاب ألف ليلة وليلة بحذف عبارات اعتبروها تفتقد الاحتشام وإضافة ليالٍ لم تكن موجودة في النسخة الأم.

أمّا عن الانتحال في تاريخنا فيقف عند كتاب الأغاني وكلّنا نعرف أن من قام بجمع ما فيه هو أبو الفرج الأصفهاني، يورد الروائي مقولة للخطيب البغدادي تنسف نسبته إلى أبي الفرج (كان أبو الفرج أكذب النّاس، كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ويحملها إلى بيته لم تكن رواياته كلها منها).

ما بين غزا وفتح: كنت أظنّ أن عنونة الدروس في الكتب المدرسيّة تحت عنوان «الفتح العثماني» أمراً مشيناً، ولم يخطر ببالي أن أنظر في المعجم، فالروائي يفرّق بينهما:

غزا العدوّ: سار إلى قتاله في أرضه

فتح البلاد: دخلها بعد أن غلب أهلها وأخضعها لسلطته.

حقائق تاريخيّة: تاريخ الحرير الدمشقي وكيفية احتضار هذه المهنة بافتعال حرائق لورشات البروكار قبل نحو مئتي سنة بمؤامرة حاكتها مطابخ سفارات أجنبية متضرّرة من ازدهار هذه المهنة في الشرق.

انحطاط اللغة في القرن السادس والسابع الهجري وصولا إلى القرن الثاني عشر.

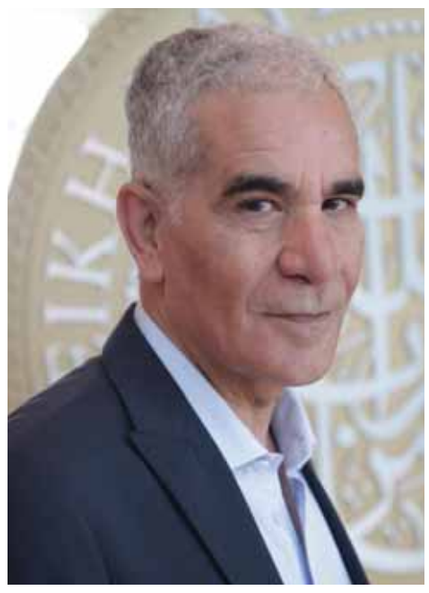

نقد التاريخ نقداً بنّاءً باستخدام الحجة والعقل: (ما إن اكتشفت أن البلاذري قد كتب فتوحه بعد مئتي سنة على الفتح الإسلامي حتى أدركتُ أيّ مهزلة أعيشها وأنا أتابع مروياته)

نقد ديني: ينقد الرّاوي الأشخاص أصحاب السوابق الأخلاقية الذين يقررون أن يتوبوا فيدّعوا الحكمة والمعرفة الطبية والدينيّة والقدرة على شفاء المرضى ليصلوا إلى غاياتهم الدنيئة.

ذكر بعض أسماء الأمكنة التي أصابها الخراب: ورد ذكر قرية صدد في ريف حمص، وهي أقدم مدينة سريانية كما يذكر الراوي. فلم يسلم من شرّ المخرّبين فيها حتى القبور التي كُسرت شاهداتها ورميت بشكل عشوائي، فلم تتمكّن رهام سمعان حبيبة الراوي من الاستدلال على قبر والدها إذ كُسرت شاهدة القبر ورميت، لكنّها بقيت مصرّة على البحث.

أقسى درجات الألم والتمسّك بالحياة: يقول الراوي (أقسى صور التمسّك بالحياة ما كتبته متدرّبة على لسان الهاربات من جحيم مدينة الرقة التي حوّلتها حمم الطائرات المعادية وسيوف البرابرة حطام مدينة مهجورة ومنسية» تمكنّا بعد حصار طويل من عبور حقل الألغام بالمشي على أشلاء الذين انفجرت بهم الألغام قبلنا وهم يحاولون الهرب».

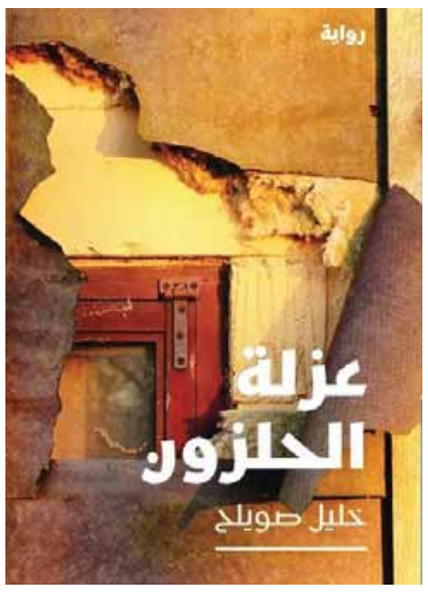

رؤيا واسعة الأفق للحبل: (الحبل الذي ينقذ من الهلاك، الحبل الذي يلتف حول العنق على هيئة أنشوطة، الحبل المشدود إلى دلو لسحب الماء من البئر في صحراء العطش، حبل الغسيل، حبل الوريد، الحبل السري لحظة انفصال الجنين عن المشيمة).

جمالية التعبير: يبقى الروائي في إطار الأبيض وينتقل من الحياة التي تجسدها الملاءة البيضاء إلى الموت الذي يجسده الكفن الأبيض (سأغرق بمزاج سوداوي داكن يحيل الملاءة البيضاء كفناً بجثة امرأة اختنقت للتو تحت الأنقاض).

صورة أخرى: (شطبت اسمها عن جرس الباب الخارجي، وبقي اسمي مشنوقاً بمفرده).

الغرائبية والمبالغة في الوصف: لمّا يحكي لنا الرّاوي عن جدّه السادس «غزال الهلالي» الذي أحبّ امرأة واستدلّ على ديارها، وبعد أيام من وصوله إلى قبيلتها مات ولهاً وماتت هي قربه.

اللازمة التي تتكرّر وتنبض وجعاً: لمّا يذهب الرّاوي إلى مستودع كتب مسروقة يفتح الستارة فيرى غسالات برّادات كومبيوترات، وتقع عينه على غسالة يتدلّى منها قطعة قماش حمراء منقّطة وقد تكون فستاناً لإحداهنّ. هذا المشهد يتكرّر في أكثر من موضع ليرسّخ الألم ممّا حصل في هذه الحرب (كنتُ أقلّبُ صفحات الكتاب، بالتناوب مع مشهد غسالة كهربائية مسروقة كانت تدور في رأسي بفستان أحمر منقّط بفراشات محنّطة).

لغة الحرب: (وكانت شوارع المدينة حبال غسيل طويلة ومتقاطعة لتجفيف جثث القتلى قبل دفنها في مقابلة مجهولة).

مقولات جميلة وردت في الكتاب: التوحيدي «ألا تعلم أن الكلام كالجسم والنّحو كالحلية؟». «مثل الكاتب مثل الدولاب إذا تعطّل تكسّر». ابن عربي «الحب موت صغير» «وتحسبُ أنّك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر». ابن رشد: «اللحية لا تصنع فيلسوفاً».

الحكمة: «مصائرنا اليوم هي ثمار صمتنا حيال خطيئة الأمس».

«ففي أوقات الفوضى عليك التزام الصمت والاكتفاء بمراقبة الحملان وهي تستبدل أظلافها بمخالب الوحوش». « ادّعاء العمل على تربية دود القزّ لن ينتج حريراً بالضرورة».

مفارقة: مفارقة قاسية يسردها الراوي أوّلها صورة مشرحة في الطابق الثامن تخص عمليات التجميل، حقن شفط تكبير تصغير و«مشرحة لأجساد لن تجد من يدفنها عدا بقايا حطام إسمنت وحديد واستغاثات مكتومة». هي إذاً مفارقة بين حياة مملوءة بذخاً وترفاً وحياة مملوءة موتاً ووجعاً.

لماذا عزلة الحلزون: يعيش الراوي حالة عزلة في قوقعته ظانّاً أنه بذلك يستطيع أن يبقى بمنأى عن الوجع أمام أحداث قاسية تشهدها حياته الشخصية والوظيفية وظروف بلده. يقول: «حلزون لا يشاركه أحد هواء قوقعته الصلبة، حلزون ضال من فصيلة الرخويّات لا يشعر بالألم في عموده الفقري، ولا يكسر أحداً ظهره بالفقدان أو الخداع».

الرّاوي لن يتمكّن من الصمود، أنه يستسلم في النّهاية أمام هول الحوادث المحيطة به، حتى رهام غادرته إلى مسقط رأسها، فيختم: «أنا الآن حلزون مكسور الظهر».

لن أتمكّن من الإحاطة بالزّخم المعرفي الموجود في الرّواية المتزامن مع سرد متين وأسلوب سلس، وصور جميلة، لذا أترك لكم القراءة كي تعرفوا أكثر وتستمعوا.

الموسيقية نسرين حمدان لـ«الوطن»: اللغة الموسيقية هي لغة واحدة في كل العالم

| رامه الشويكي

لمعت موهبتها الموسيقية في الخامسة من العمر، وبدأت العزف مع الفرقة السيمفونية الوطنية منذ عام ١٩٨٥، تتمتع بإحساس مرهف وقدرة على التعبير عن المشاعر الإنسانية من خلال الموسيقا بأناملها التي تعزف على آلة الكمان وقلبها الممتلئ بالشغف، وقفت لتمثل بلدها على أهم المسارح العالمية، إنها الموسيقية وعازفة الكمان «نسرين حمدان».

عن مسيرتها الموسيقية ومشاركاتها العالمية كان لنا معها هذا الحوار:

• بأي عمر لمست موهبتك الموسيقية؟ ومن شجعك لتعزيزها بالدراسة الأكاديمية؟

بدأت العزف على آلة البيانو بشكل خاص في المنزل في الخامسة من العمر بتشجيع من والدي الذي لمس ميولي الموسيقية، ثم انتسبت عام ١٩٨١ إلى معهد صلحي الوادي عندما كنت في السابعة من العمر، حيث وجهني الموسيقي الراحل «صلحي الوادي» لآلة الكمان، وما زلت إلى اليوم أمارس العزف على هذه الآلة الموسيقية، رغم انقطاعي لمدة اثني عشر عاماً بسبب مرض مهني يصيب معظم الموسيقيين، حيث عدت للعزف منذ ثلاث سنوات، وتبلغ مسيرتي في العزف على آلة الكمان خمسة وثلاثين عاماً تقريباً.

• من مثلك الأعلى في العزف والموسيقا ولماذا؟

يشكل العازف السوري العالمي نجمي السكري مثالاً يحتذى في العزف على آلة الكمان، فقد أسس مدرسة في العزف على هذه الآلة، وكان له دور كبير بتعليم الموسيقا، رغم عدم مزاولته المهنة في سورية لفترة طويلة، إلا أنه ترك بصمة مهمة جداً في «سورية» والعالم، والموسيقي الثاني هو عرفان حنبلي أستاذي الذي درسني لمدة سنتين تقريباً، وترك بصمة كبيرة في تكوين شخصيتي الموسيقية، وتأثرت فيه إلى حد كبير.

• لماذا اخترت الكمان بالتحديد؟

بعد خضوعي لعدة اختبارات أثناء دراستي في المعهد، أخبر الأستاذ الراحل «صلحي الوادي» والدي بأن آلة الكمان تناسبني من حيث قوة أعصاب اليدين، إضافة إلى أن مجال عملها أوسع، إذ يمكن لعازف الكمان أو الآلات الوترية الأخرى أن يمارس العزف المنفرد، موسيقا حجرة، العزف مع فرق الأوركسترا، أو ضمن الفرق الشرقية.

• كيف استطعت التعبير عن أحاسيسك من خلال آلة الكمان؟

تتميز آلة الكمان بخصوصية كبيرة، من حيث دقتها ودقة العلامات الخاصة بها، التي تنعكس على شخصية العازف بالعموم، وتعلمت منها الدقة في العمل، الإحساس المرهف، الجلَد الذي تحتاج إلى الكثير منه للعزف عليها، لأن أبعاد آلة الكمان صغيرة جداً، كما تحتاج إلى أذن موسيقية حساسة جداً تتابع باستمرار، وإحساس مرهف يخرج من القلب، ودماغ متابع، فهي تتطلب من العازف كتلة متكاملة.

• ما أهم الفعاليات التي شاركت بها مع الفرقة السيمفونية الوطنية؟

أنتمي إلى الجيل الثاني المؤسس للفرقة السيمفونية الوطنية، كنا نتمرن في فرقة موسيقا الحجرة بالبداية، وكنت من أصغر العازفين فيها، وبدأت العزف مع الفرقة منذ عام ١٩٨٥، وشاركت معها بالعديد من الفعاليات أهمها حفل في الولايات المتحدة الأميركية بقيادة المايسترو صلحي الوادي، ومعرض «إكسبو» في «إسبانيا»، ومشاركات أخرى في تركيا، فرنسا، إيطاليا، والعديد من دول العالم، كما تشكل مشاركتي في الصين المرتبة الثانية من حيث الأهمية، حيث كنت العازفة السورية والعربية الوحيدة التي عزفت مع الفرقة السيمفونية الصينية في مؤتمر «حوار الحضارات الآسيوية» في الصين «بكين» منذ أشهر، ولاشك أن اللغة الموسيقية هي لغة واحدة في كل العالم، والإحساس الموسيقي مشترك، وكانت تجربة مهمة بالعزف مع مايسترو عالمي، والمشاركة في مهرجان على هذا المستوى من الأهمية بحضور عازفين من كل دول شرق آسيا، منها «أذربيجان»، «أوزبكستان»، «طاجكستان»، وغيرها، وشعرت بالفخر لتمثيل بلدي وإيصال رسالة سلام إلى العالم، والوصول إلى العالمية، نحن شعب مسالم، طموحه عالٍ جداً، والدليل أن السوريين مبدعون في أغلبِ دول العالم، وإبداعهم حاضر في كل المجالات سواء أكانوا حرفيين، أم موسيقيين، أو أطباء، أو مهندسين، أو فلكيين، أو علماء، وللسوري بصمة أينما حل.

• ما أهمية تنمية مواهب الأطفال الموسيقية منذ الصغر وبناء علاقة إيجابية بين المدرب والعازف الطفل؟

ينعكس تعلم الموسيقا على حياة الطفل كلها، لأنها تنمي شخصيته وأحاسيسه وحضوره الاجتماعي، فهي تصقل موهبته، وترتقي به ليسهم في تطور المجتمع، وأعتقد أن كل طفل له مفتاح، ودور المدرب أو الأستاذ أن يقرأ هذا المفتاح، هناك أطفال يتعلمون بالمسايسة والمراوغة، أو الشدة، والموهبة موجودة لدى كل الناس لكن المهم أن نكتشفها، ونعمل على تطويرها.

نسرين حمدان في سطور

تشغل حالياً منصب مديرة مديرية المعاهد الموسيقية والباليه ومعهد صلحي الوادي للموسيقا.

تخرجت في معهد صلحي الوادي عام ١٩٩٠.

انتسبت للمعهد العالي للموسيقا في عام ١٩٩١ وتخرجت فيه عام ١٩٩٦ تنتمي للدفعة الثانية من خريجي المعهد.

حاصلة على إجازة في اللغة الفرنسية من جامعة دمشق، وماجستير من المعهد العالي للموسيقا.

ولدت في دمشق عام ١٩٧٣.

صورة عن تاريخ اللغات بعيداً عن التعصب والتطرف واللاموضوعية

| سوسن صيداوي

«أعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام، فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان. وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم». هذا تعريف للّغة من عالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون. وفي العادة تعرّف اللغة بأنها مجموعة من الأصوات المنطوقة والتي يستخدمها الإنسان للتعبير عن أفكاره ومشاعره، وللتفاهم والتواصل مع أعضاء جماعته التي يعيش فيها، واللغة هي من أهم وسائل التواصل والتفاهم بين الأفراد في المجتمع، وبالطبع لكل مجتمع أو جماعة لغة خاصة بها. وفي بحثنا هذا هناك الكثير من الأفكار والفصول التي جمعها لنا د. عيد مرعي في مؤلفه(تاريخ لغات المشرق العربي القديم–اللغات السامية)الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، وهو الكتاب من القطع الوسط بواقع مئتين وثمانٍ وثمانين صفحة، مقسما إلى أربعة فصول.

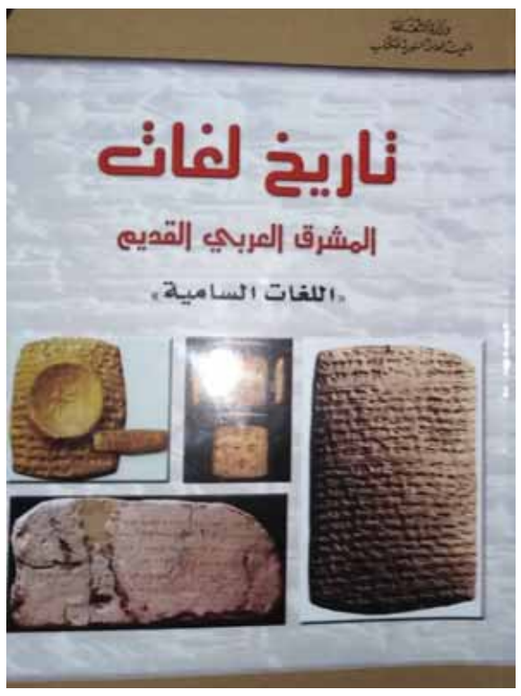

في الفكرة

لم يخص د. مرعي في هذه الدراسة، تفاصيل قواعد كل لغة من لغات المشرق العربي القديم، مشيراً إلى أن أمرا كهذا يحتاج إلى جهود عدد كبير من المختصين بهذه اللغات، وإلى مجلدات ضخمة وكثيرة، بل اكتفى المؤلف بإعطائنا لمحة موجزة عن تاريخ كل لغة ومناطق انتشارها وزمن استخدامها، والوثائق المكتوبة بها والمكتشفة حديثا مع تقديم نماذج منها مكتوبة بالحرف العربي مقرونة بترجمة لها، وإيراد مجموعة من كلماتها، «كان قصدنا من وراء ذلك إعطاء صورة صادقة عن تاريخ تلك اللغات وفكرة موجزة عن خواصها وصفاتها، وإبراز درجة قرابتها من اللغة العربية، كل ذلك بعيداً عن التعصب والتطرف واللاموضوعية».

بعيداً عن التعصّب

صدرت منذ أكثر من قرن من الزمن دراسات كثيرة عن لغات المشرق العربي القديم(اللغات السامية)، وبلغات أجنبية متعددة، إنكليزية وألمانية وفرنسية وإيطالية وروسية وغيرها، وتُرجم بعضها إلى اللغة العربية. ويضيف د. عيد مرعي في مقدمته بأنه حتى الآن لم تصدر إلا دراسات قليلة جداً باللغة العربية حول هذا الموضوع، على الرغم من أهميته وصلة هذه اللغات القوية باللغة العربية، ويتابع»ثم إن عدد الذين تخصصوا بهذه اللغات من العرب قليل جداً بالمقارنة مع عدد المختصين في هذا المجال في الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية. وإن بعض من يحاول دراسة هذه اللغات القديمة من العرب يتناولها من زاوية تعصبية تقول إن اللغة العربية هي أصل هذه اللغات، دون أن يكون لديه إلمام بتاريخ هذه اللغات أو اطلاع على مبادئها وقواعدها وتصريفاتها، أو يعتمد في ذلك على بعض الروايات والآراء الدينية القديمة التي لا ترتكز على أي أساس علمي. ومن ثم فإن هذه الدراسات شوهت أفكار القرّاء عن تلك اللغات القديمة التي يمكن القول عنها أنها تمثل جذور اللغة العربية». متابعا بأن هذا الأمر لم يتوقف عند ذلك بل شارك في التشويه كثير من الهواة الذين لا يعرفون شيئاً عن أصول البحث اللغوي والتاريخي، فوضعوا مؤلفات أساسها التعصب الديني أو القومي، وفرضوها على المستمع أو القارئ أو المشاهد من خلال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية ووسائل الاتصال الحديثة المختلفة بما لهم من سطوة ونفوذ. وكانت النتيجة تشويه كل ما هو جميل ومفيد في تاريخنا القديم الضاربة جذوره في أعماق الزمن.

في الفصول

كما أشرنا أعلاه بأن كتاب(تاريخ لغات المشرق العربي القديم–اللغات السامية)يضم أربعة فصول تحكي عن تاريخ اللغات القديمة واللهجات السامية وآدابها التي انتشرت في جميع مناطق المشرق العربي منذ الألف الثالث قبل الميلاد حتى القرون الميلادية الأولى كالأكادية والإبلوية والأوغاريتية والفينيقية وكنعانية العهد القديم والآرامية والسريانية ولهجات العرب الشمالية والجنوبية، مع عرض نماذج من نصوصها، مبيناً البحث مدى ارتباط أو تشابه أو تطابق قواعد ومفردات هذه اللغات واللهجات مع اللغة العربية التي تمثل وعاءً كبيراً انصهرت فيه جوانب كثيرة من هذه اللغات واللهجات، ومن ثم تصبح دراستها ذات فائدة كبيرة لدراسة تاريخ اللغة العربية وقواعدها وآدابها.

مع الإشارة إلى أن اللغات التي عرفها الإنسان منذ نشأته على سطح الأرض تقسم إلى مجموعات، بناء على أوجه التشابه فيما بينها ويتابع د. مرعي بأن المجموعات اللغوية العالمية المعروفة هي:

مجموعة لغات المشرق العربي القديم(السامية) موضوع هذه الدراسة وهي لغات انتشرت في بلاد الرافدين وسورية القديمة وشبه الجزيرة العربية في العصور القديمة.

مجموعة اللغات الحامية وهي التي سادت في القارة الإفريقية في العصور القديمة، كالمصرية القديمة والصومالية والأمازيغية وغيرها.

مجموعة اللغات الهندو أوروبية وهي تلك التي انتشرت في المنطقة الممتدة من الهند إلى أوروبا كالسنسكريتية ولغات الهند القديمة والفارسية وغيرها.

مجموعة اللغات التركية–المغولية وهي تلك التي انتشرت في أواسط آسيا وأشهرها التركية المغولية.

مجموعة اللغات الصينية التيبيتية وهي تلك التي انتشرت في الصين وجنوب شرقي آسيا وأشهرها الصينية والتيبيتية والكورية.

مجموعة لغات الهنود الحمر في أميركا الجنوبية ومنها لغات المايا والأزتيك.